

الباب الأول

فى

علم الشريعة والحقيقة

obeikandi.com

اعلم هداك الله تعالى أنى وضعت فى هذا الباب من أصول الدين ما يترقى به السائل إلى ما لا نهاية له من حقائق علم الشريعة .

والأصل فى ذلك : أن أصل العلم ومقصوده والمراد منه ؛ هو علم التوحيد الخاص ^(١٢) ؛ وهو معرفة الله عز وجل وتمييز الخالق من المخلوق ، وتنزيه الله عما سواه ، فذاك هو الدين القيم والصراط المستقيم ، قال الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] . قال بعض المفسرين ^(١٣) : أى ليعرفونى فيوحدونى . ولذلك بداية ونهاية .

أما البداية : فهى العلم المشروع بالظاهر ، وهو علم الشريعة .
وأما النهاية : فهو العلم المشروع بالباطن ، وهو علم الحقيقة ^(١٤)

(١٢) سئل الجنيد - رحمه الله تعالى - عن توحيد الخاص ؛ فقال : إن يكون العبد شبحاً بين يدى الله سبحانه ، تجرى عليه تصاريف تدبيره فى مجارى أحكام قدرته ، فى لجج بحار توحيده بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له وعن استجابته بحقائق وجوده ، ووحدانيته فى حقيقة قربه ، بذهاب حسه وحركته لقيام الحق سبحانه فيما أراد منه وهو أن يرجع آخر العبد إلى أوله فيكون كما كان قبل أن يكون . [الرسالة القشيرية ص ٣٠٠] والمراد : أن يكون العبد راضياً بما يجريه الله تعالى عليه ، مما يرضاه له فرح النفس ، حسن الظن بربه ، أى أن يكون بسرّه ووجده وقلبه كأنه قائم بين يدى الله تعالى تجرى عليه تصاريف تدبيره وأحكام قدرته .

(١٣) انظر : تفسير الفخر الرازى [٢٣٤/٢٨] . قال الطبرى فى تفسيره : وأولى الأقوال فى ذلك على ما ذكر ابن عباس ؛ وهو : ما خلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا والتذلل لأمرنا . [١٢/٢٧] .

(١٤) علم الحقيقة : مشاهدة الربوبية ، أى رؤيتهما بالقلب وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فأمرها غير مقبول ، وكل حقيقة غير مؤيدة بالشريعة ، فأمرها غير محمول . والشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره ، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إن المعارف به سبحانه أيضاً وجبت بأمره . [الرسالة القشيرية ص ٣٨ ، كشاف اصطلاحات الفنون ٢/٨٦] .

وهما. متلازمان متفقان على الشريعة ظاهراً وباطناً ؛ لأنه لا يبدأ لكل بداية من نهاية ولكل ظاهر من باطن ، كما لا بد لكل حق من حقيقة ، ولهما ماهية وكيفية وكمية .

أما الماهية^(١٥) : فاعلم أن العلم يترقى في ثلاث درجات^(١٦) ، ماهيات للعلم ، وهي : العلم ثم المعرفة ثم المشاهدة .

أما العلم^(١٧) : فهو علم الشريعة .

(١٥) ماهية الشيء : مابه الشيء هو هو ، وهي من حيث هي هي لا موجودة ولا معدومة ، ولا كلي ، ولا جزئي ، ولا خاص ، ولا عام ، والماهية تطلق غالباً على الأمر المتعقّل مثل المتعقّل من الإنسان ، وهو الحيوان الناطق مع قطع النظر عن الوجود الخارجى . [التعريفات للجرجاني ص ٢٥١] .

(١٦) يشير الأستاذ الدكتور : على جمعة فى كتابه (علم أصول الفقه وعلاقته بالفلسفة الإسلامية ص ٢٥) إلى الفرق بين الواقع ، ونفس الأمر -الذى أشار إليه المصنف ؛ صاحب الكنز، بعلم الشريعة أو الدرجة الأولى من الماهية ، وهي العلم- أما نفس الأمر المتعلق بحقائق الأشياء -وهي الدرجة الثانية والثالثة من الماهية أى ؛ بالمعرفة، والمشاهدة ، كما أشار ابن تومرت -فيقول الدكتور على جمعة : يختلف إدراك الإنسان له عبر الزمان وحسب كمّ المعلومات التى لديه وطريقة وصول المعلومات ، فعليه يختلف إدراك الناس وتتفاوت بحسب مكان كل منهم ، وهو يظهر جليا فى الفرق بين إدراك أبو بكر الصديق وبين إدراك أحد من عامة المسلمين . وذلك ما رسمه المصنف بالحقيقة والمشاهدة . ويقول الشيخ على جمعة فى كتابه السابق الذكر : فإن النصوص الشرعية ينبغى أن تتعلق فى خطابها العام للكافة بالواقع بصورة أصلية، ولا تتعلق بنفس الأمر إلا بصورة ثانوية وأظن أن هذا الفهم يحل مشكلة العلم والدين التى نشأت من صدام النصوص المحرفة للوحى فى الغرب مع الحقائق المتتالية المدركة بالتجربة والحس أى مشكلة العلم والدين .

(١٧) العلم : هو إدراك الشيء على ما هو عليه . والمراد : الدرجة الأولى من مقصود الحكمة ، وهي إدراك الشريعة الظاهرة التى جاء بها النبي ﷺ ، والتي نجد المؤلف يعادل هذه الدرجة من الماهية بظاهر الإسلام . [التعريفات للجرجاني ص ١٩٩] .

وأما المعرفة^(١٨) : فهي علم الحقيقة .

وأما المشاهدة^(١٩) : فهي حقيقة الحقيقة وطريق العبد السالك أن يطابق العلم بالعمل عقيدة بالجنان وعملاً بالأركان^(٢٠) في ثلاث درجات أيضاً وهي : الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان .

أما الإسلام : فهو ما اعتقده الظاهر بعلم اليقين من علم الشريعة عند بداية العلم .

وأما الإيمان : فهو ما اعتقده الباطن بعلم اليقين من علم الحقيقة عند المعرفة .

وأما الإحسان : فهو مطابقة العلم بالعمل من حقيقة الحقيقة عند المشاهدة. وذلك هو حق اليقين^(٢١) والدين القيم الخالص والاستقامة مع الله عز وجل .

(١٨) المعرفة : هي إدراك الشيء على ما هو عليه ، فهي ترادف العلم ، وإن تعدت إلى مفعول واحد والعلم إلى اثنين . وقيل هي مسبوقة بجهل ، بخلاف العلم ولذلك يسمى الحق تعالى : بالعالم دون العارف وهي الدرجة الثانية من الماهية من مقصود الحكمة كما أشار المؤلف . [التعريفات للجرجاني ص ٢٨٣] .

(١٩) المشاهدة : تطلق على رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ، وتطلق بإذائه على رؤية الحق في الأشياء وذلك هو الوجه الذي له تعالى بحسب ظاهريته في كل شيء . [التعريفات للجرجاني ص ٢٧٤] .

(٢٠) وفي ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ((الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان)) . أخرجه ابن ماجة ، المقدمة ، باب في الإيمان (٦٥) .

(٢١) اليقين : هو العلم الذي لا يداخل صاحبه ريب على مطلق العرف ، ولا يُطلق في وصف الحق سبحانه لعدم التوفيق : وعلم اليقين ما كان بحكم البيان ، وحق اليقين ما كان بنعت العيان ، والثلاث أوصاف جاءت في القرآن الكريم قال تعالى ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] . وقال تعالى ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] . [الرسالة التفسيرية ص ٨٥] .

وقد ندب الله عز وجل إلى جميع ذلك ونبه عليه بمحكم كتابه العزيز .

فقال الله تعالى فى الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].
وقال تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] .

وقال تعالى فى الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال تعالى فى الإحسان^(٢٢) ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ
يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] . وقال تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا
تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢] . قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا
رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]
وقال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً وَيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥] . أى طريق المستقيمة .

فهذه ثلاث درجات ، كما ذكرنا على منهج الكتاب العزيز وتأييده السنة
بقول النبى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم حين أتاه جبريل عليه
السلام فى صورة أعرابى يسأله عن الدين ، فقال : يا محمد ، أخبرنى عن
الإسلام ، فقال: ((تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ونقيم
الصلاة ، ونؤتى الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت الحرام)) . قال :
صدقت يا محمد ، فأخبرنى عن الإيمان ، قال : ((تؤمن بالله ، وملائكته ،
وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر خيره وشره)) . قال :
صدقت يا محمد ، فأخبرنى عن الإحسان ، قال : ((تعبد الله كأنك تراه ، فإن
لم تكن تراه فإنه يراك)) . قال : صدقت يا محمد ، فأخبرنى عن الساعة ، قال :

(٢٢) راجع تفسير الطبرى [٢٦٩/٧] ، تفسير الفخر الرازى [٨٣/٧] .

((ليس المسئول عنها بأعلم من السائل)) . قال: صدقت يا محمد ثم خرج . فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ((أتدرون من السائل؟)) قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : ((هو أخوكم جبريل أتاكم ، ليعلمكم دينكم))^(٢٣) .

فحقيقة الإسلام^(٢٤) : قيام البدن بوظائف الأحكام الدينية .

وحقيقة الإيمان^(٢٥) : قيام القلب بوظائف الاستسلام .

وحقيقة الإحسان^(٢٦) : قيام الروح بمشاهدة الملك العلام .

(٢٣) أخرجه البخارى ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ [٥٠] وفى كتاب التفسير ، باب إن الله عنده علم الساعة (٤٧٧٧) عن أبى هريرة رضي الله عنه وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان [١/٨] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢٤) الإسلام : الخضوع والانقياد ، والاستسلام لله عز وجل باتباع ما جاء به الرسول ﷺ؛ من الشهادة باللسان والتصديق بالقلب والعمل بالجوارح . [الموسوعة الفقهية ٢٥٩/٤] .

(٢٥) الإيمان : هو تصديق القلب بما جاء به الرسول ﷺ ، والإقرار باللسان والعمل به . والإيمان درجات بحسب قوة التصديق لوضوح الأدلة وجودة الفهم ، ويزيد الإيمان بالطاعات وينقص بالمعاصى ويتفاضل الناس فيه . قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَأَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ . وإذا اقترن الإيمان بالإسلام ، فإن معناها يقتصر على تصديق القلب ، كما فى حديث جبريل لسؤال النبي ﷺ . وإذا انفرد الإيمان يكون حينئذ بمعنى الاعتقاد بالقلب ، والتصديق بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره مع الانقياد . [الموسوعة الفقهية ٣١٥/٤ ، فتح البارى ٤٧/٤٦/١ جامع العلوم والحكم ص ٢٢] .

(٢٦) الإحسان : الإحسان أخص من الإيمان فكل محسن مؤمن وكل مؤمن مسلم ولا عكس . والإحسان هو التحقيق بالعبودية على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة ، أى يراه يقيناً ولا يراه حقيقة وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : ((تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) . [فتح البارى ٤٨/١ ، التعريفات ص ٢٧] .

وهذا كله لا يصح إلا بالعلم ومعرفة المعلوم ؛ لأن من جهل شيئاً
أنكره، فلا تصح العبادة إلا بمعرفة المعبود . فإذا لا بد من العلم ؛ حينئذ
ضرورة ، وهو ما قدمنا أصله في الماهية وننبه عليه فيما بعد .

وأما الكيفية^(٢٧) : فاعلم أن العلم في نفسه ؛ هو مسموع ومنظور ومعقول .
فأما العلم المسموع : فهو ما سمع من الكتب وجاءت به الرسل ؛ من
جمال أسماء الله وكمال صفاته ، وجلال عظمة ذاته ، وأمره ونهيه ، ونحو
ذلك كقوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ معناه : استفتح الله العظيم
الأعظم باسمه الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سُئِلَ به أعطى ، رحمن الدنيا
ورحيم الآخرة ، لا رحمن فيهما ولا رحيم إلا هو^(٢٨) .

وقوله تعالى ﴿إِلَهُمَّ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١] .
فمعنى ﴿إِلَهُمَّ﴾ أنا الله أعلم . ومعنى ﴿اللَّهُ﴾ إله الآلهة ، فهو إله كل شيء
وخالقه ، ورب كل شيء ومالكة . ومعنى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى : إله واحد لا
شريك له فى إلهيته وتدبير ملكه ، فهو منفرد بالوحدانية فى ذاته وصفاته
وأفعاله . ومعنى ﴿الْحَيُّ﴾ المنزه بدوام الحياة عن الفناء ومعنى ﴿الْقَيُّومُ﴾
أى القائم بتدبير خلقه الموجود أبداً المنفرد فى ملكه وعظمته وقدرته بدوام
البقاء^(٢٩) .

(٢٧) الكيفية ؛ من الكيف وهى : هيئة قارة فى الشيء لا يقتضى قسمة ولا نسبة لذلك
فقوله هيئة : أى تشتمل الأغراض كلها ، وهى أربعة أنواع : كيفية محسوسة ؛
كحلاوة العسل وملوحة ماء البحر ، ويسمى انفعاليات راسخة وأما الإنفعالات الغير
راسخة كحمره الخجل كونها أسباباً لانفعالات النفس . الثانية : الكيفيات النفسانية
كصناعة الكتابة للمتدرب فيها وتسمى ملكات راسخة ، والغير راسخة تسمى حالات
كالكتابة لغير المتدرب - الثالثة : الكيفيات المختصة بالكميات - الرابعة : الكيفيات
الاستعدادية . [التعريفات لنجرانى ص ٢٤٢] .

(٢٨) راجع تفسير البيضاوى ، روح المعانى للألوسى [٤٣/١] .

(٢٩) قال الطبرى فى تفسيره : فإنه خير من الله عز وجل أخبر عباده أن الألوهية خاصة
به دون ما سواه من الآلهة والأنداد . تفسير الطبرى [١٦١/٣] ، روح المعانى
للألوسى [٧٥/٣] .

ومثل قوله تعالى ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. فمعنى ﴿لا تدرکه الأبصار﴾ : التنزيه لذاته عن الإدراك، فهو المنفرد بعلم ذاته عن المخلوقات ، ومعنى ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ ؛ أى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ومعنى ﴿اللطف﴾ هو الملاطف بالرحمة كرمأ منه وتفضلاً على كافة خلقه ومعنى ﴿الخبير﴾ هو الخبير بكل شىء فيما يصنع ، فلا شريك له فى ملكه^(٣٠) .

ومثل قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فمعنى ﴿ليس كمثله شىء﴾ التنزيه ؛ أى لا يشبهه شىء فى ذاته ، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله ؛ فهو منزه بالكلية عن جميع خلقه فى ذلك . ومعنى ﴿وهو السميع البصير﴾ أى : لا يفوته شىء ولا يخفى عليه شىء ولا يعزب عنه شىء ولا يشغله شىء . عن شىء .

ومثل قوله تعالى ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد : ٣]. [أى] هو ﴿الأول﴾ بلا بداية ﴿والآخر﴾ بلا نهاية ، ومعنى ﴿الظاهر﴾ أى : الموجود فى كل شىء بايجاده إياه ؛ لأنه صانعه والصنعة^(٣١) دليل على الصانع . ومعنى ﴿الباطن﴾ : المستولى بالعلم والقدرة والحوال والقوة . ومعنى ﴿وهو بكل شىء عليم﴾ أى : أحاط بكل شىء . علماً ، وأحصى كل شىء عدداً .

(٣٠) انظر : تفسير الطبرى [٢٩٩/٧] .

(٣١) أى خلقه وهيئه على مثال مستقيم . ذهب الموحدون إلى أن الصانع خلق الأجسام والأعراض ابتداءً من لا شىء وقالوا : لم تكن الحوادث قبل حدوثها أشياء ولا أعيان ولا جواهر ولا عوارض ، وبعد أن أحدثها صانعها - يصح منه نقلها من صورة إلى صورة ، وإخراج جنس مخصوص من بين جنسين مختلفين فى الصورة كإخراج البغل من الفرس والحمار . [أصول الدين لابن طاهر ص ٧٠] .

ومثل قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك : ١] . أى : تبارك وتنزه وتملك كل شىء بقدرته ، ولا يخرج شىء عن قبضته ، ولا حول عن معصيته ، ولا قوة على طاعته إلا بمشيئته . ﴿وهو على كل شىء قدير﴾ .

ومثل قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] . فمعنى ﴿الأحد﴾ أى : هو واحد من جهة العدد لا ينقسم إلى أشياء كثيرة ، وبسيط فى أوليته لا يتركب ، ولا يختلط بالمركبات ، ولا يتنوع ، ولا يختلط بالأنواع ، ولا يتغير ، ولا تدركه التغيرات كالأشياء المحدثات ؛ بل هو قديم منفرد بالوحدانية ، فهو واحد فى ذاته وصفاته وفعاله . ومعنى ﴿الصمد﴾ أى : ليس بطاعم ولا شارب ، ولا تلحقه الزيادة والنقصان كغيره أيضاً . ومعنى ﴿لم يلد﴾ أى ليس بوالد كما زعم أهل الشرك الملحدون به ﴿ولم يولد﴾ أى : ليس بمولود كما زعموا أيضاً . ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ أى : لا يضاده ، ولا يماثله ، ولا يقوم مقامه شىء البتة . فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وكفى به رباً وولياً ، وهو العلى العظيم (٣٢) .

ومثل قوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة : ٣١] . أمرهم بعبادته وحده لا شريك له ، ثم نزه نفسه عن الشرك .

ومثل قوله تعالى ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء : ٣٦] . أمر بطاعته ولزوم عبادته ، ونهى عن معصيته وعن الإشراف به ، ونحو ذلك من صفات الله تعالى ، وما أحكمه فى كتابه من الدلالة على وحدانيته

(٣٢) راجع تفسير الطبرى فى الكبير والفخر الرازى والقاسمى . تفسير سورة الإخلاص .

وعظمته وقدرته ونهيه وتنزيهه عما سواه ، ونحو ذلك مما أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، فهذا كافي في كيفية المسموع شرعا .

وأما العلم المنظور : فهو ما كتبتَه يد القدرة الإلهية بغير آلات وسطرته إرادة الله عز وجل من جميع مخلوقاته ليقراءه أولوا البصائر والألباب من جميع الموجودات المخلوقات الكائنات في جميع الوجود ، مما شاهدته العيون وخفى عنها من الانفعالات الطبيعية الجارية بالانتقالات والتغيرات في العوالم العلويات والسفليات في جميع أماكنها وأزمنتها ، وما أودع الله فيها من خير أو شر أو نفع أو ضرر أو سعد أو نحس أو حياة أو موت أو صحة أو سقم ، وأجراها في ذلك على مشيئته وإرادته وقوته فدلَّ بها على معرفته وحكمته ونبَّه عليها بقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف : ١٨٥] .

وقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم : ٨] .

وقوله تعالى ﴿سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت : ٥٣] .

ومثل قوله تعالى ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات : ٢٠-٢١] ونحو ذلك من الآيات الدالة على بديع صنعته وتدبير ملكه وحكمته فهذان العلمان -أعنى : المسموع ، والمنظور - هما علم الشريعة الظاهرة بعلم اليقين ، كما قدمناه والله سبحانه عز وجل أعلم .

وأما العلم المعقول : فهو شريعة باطنة مؤيدة للشريعة الظاهرة حتى يفضى إلى حق اليقين ، وذلك ما حكم به العقل النوراني في القلب الإنساني

الذى جعله مرآة للعارف يميز به الحق من الباطل بالنظر الحقيقى ؛ لأن الله تعالى لما أرسل رسلا ظاهرة بما تجهله النفس الأمارة بالسوء من العلم الظاهر ، وقاسته بقياسها الفاسد على طبعها الكثيف الذى أودعه الله تعالى فيها لما شاء من علمه لم يكن ذلك كافياً فى حق الجاهل الكثيف الطبع ؛ لأن من جهل شيئاً أنكره . ولذلك كان النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : ((اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون))^(٣٣) . أى ألهمهم الصواب بنظر العقل الحقيقى ؛ لأن العقل : نور إلهامى عاقل لجميع الأشياء أى جامع لها - كما سنذكر إن شاء الله تعالى - فالعقل حينئذ جعله الله تعالى رسولا باطنا مؤيداً بالنظر الحقيقى لما جاء به النبى صلى الله عليه وآله وسلم مبلغاً عن الله تعالى بغير واسطة نبى مرسل ولا ملك مقرب إلا روح الله الذى يلهم العقل - كما سنذكر إن شاء الله تعالى فى موضعه - قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿رُسُلًا مَّبَشُرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] . أى : الظاهرة والباطنة كجبريل عليه السلام والأنبيا المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، والعقل الراجح بالنظر الحقيقى ؛ لأن العقل قد صار أيضاً من جملة الرسل ؛ لتمييزه الحق من الباطل ، وتأيدده للنبى صلى الله عليه وآله وسلم .

والعاقل : هو الذى إذا سمع شيئاً ، أو رآه ، أو دعى إليه ، أو أمر به ، أو نهى عنه ، وكان ذلك الشئ مخالفاً لطبع نفسه ، أو موافقاً لها ولم يدر أن الصواب المجىء إليه أو النفور عنه دبره أولاً بنظر العقل الذى أودعه الله تعالى فيه لذلك ، وتفكر فى عاقبته وحقيقة معرفته ، وما يؤول إليه من الصواب والخطأ ، والضلال والهدى . فيميزه بعقله العاقل لجميع الأشياء ،

(٣٣) ذكره الزبيدى : [إتحاف السادة المتقين ٣٥٨/٨] ، وأورده السيوطى ، وهو جزء من حديث طويل فى الدر المنثور [٢٩٨/٢] وعزاه لابن مردويه والضياء فى المختار عن ابن عباس .

فماز حينئذ بمعرفة ذلك الشيء وعلم حقيقته وظفر بسلامة عاقبته ، فما حكم به العقل النوراني في القلب الإنساني ، فهو علم الحقيقة الباطن شرعاً ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وطريق السالك في ذلك : أنه إذا دعاه الله تعالى إلى طاعته بالعلمين المتقدمين اللذين هما : المسموع والمنظور ، ثم أحتجبت النفس عن ذلك وأنكرته؛ لعظمتها وكثافة طبعها المجبول على الجهل والهوى ، فهي على الحقيقة : النفس الأمارة بالسوء - كما ذكر الله تعالى - والقُدوة الشديدة العداوة كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ((أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك))^(٣٤) . فتستحق المجاهدة حينئذ ؛ لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] . وهي أقرب من يلى الإنسان من الأعداء على الحقيقة ؛ لأنها داخله في باطنه تدعوه إلى الكفر والضلالة والمعصية ؛ لتورده إلى المهالك فهي أعدى الأعداء . وأقربهم منه ؛ لكونها باطنة في داخله والعدو الباطن أضر من العدو الظاهر ؛ ولهذا هي أضر من الشيطان الذي هو أعدى الأعداء الظاهرين ، لأنه أيضاً أقربهم ؛ لكونه جاثماً على القلب من خارج يوسوس للنفس بالسوء وفعل المعاصي ، وقد حرّض الله تعالى على عداوته ونص عليها في محكم كتابه بقوله تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] .

(٣٤) انظر : إتحاف السادة المتقين للزبيدي [٣٣/٩ ، ٧ / ٢٠٦] ، المغنى عن حمل السفار للعراقي [٤/٣] ، قال : فى كشف الخفا : رواه البيهقى فى الزهد بإسناد ضعيف . وما أحسن ما قيل :

إِنِّي بَلِيَّتُ بَارْتِعِ مَا سُلِطُوا إِلَّا لِأَجْلِ شَقَاوَتِي وَعَنَائِي
إِنِّي بَلِيَّتُ بَارْتِعِ مَا سُلِطُوا كَيْفَ الْخَلَّصُ وَكَيْفَ أَعْدَائِي

والأصل فى ذلك : أن العقل والإيمان فى داخل القلب . والنفس : ساكنة فى الدماغ محتوية على جميع الحس والحركة فى البدن ، وطرفها اللطيف من حيز العقل متصل بالروح والإيمان اللذين فى القلب ، وطرفها الكثيف من حيز الجسد مما يلى الشيطان فهى تارة تتجذب إلى العقل والإيمان وتارة تتجذب إلى المعاصى وفعل الشيطان .

ومثل الجميع : كقوم أعداء فى قصر ؛ وهو القلب ، والقصر فى مدينة؛ وهى الجسد ، فإن غلب العقل والإيمان على النفس حتى استأسراها وجذبها^(٣٥) إلى طبعهما الصالح هرب الشيطان وصلاح ذلك الجسد ، وإن مالت النفس الشهوانية الأمرة بالسوء إلى المعصية وفعل الشيطان ضعف العقل والإيمان . ففسد ذلك الجسد وكانت سبباً لهلاكه .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : ((إن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب))^(٣٦) .
وإن وقعت الموازنة والمغالبة فالمحاربة باقية ، وإلى ذلك أشار النبى صلى الله عليه وآله وسلم بقوله حين رجع من غزاة الكفار : ((رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر))^(٣٧) . يعنى : جهاد النفس ، فحينئذ ينبغى أن ينزل إليها ضرغام العقل على جواد قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت : ٦٩] . فيضربها بسيف الحقيقة القاطع لدروع الجهل ، فيقول لها : لِمَ لا تطيعى من خلقك وخلق كل شىء ، وهو على كل شىء قدير ، وهو الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له . فإن قالت : ما الدليل على ذلك ؟ .

(٣٥) فى النسخة (ع) : وجدا .

(٣٦) أخرجه البخارى ، كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه [٥٢] .

(٣٧) ذكره العراقى فى المغنى عن النعمان بن بشير رَجَعْنَا مِنْهُنَّ [٧/٣] ، والزبيدى فى

الإتحاف [٣٧٩/٦] ، وكشف نخفا [٥١١/١] ، وقال نقلًا عن ابن حجر: هو مشهور

على الألسنة ، وهو كلام إبراهيم بن عليه بورواه البيهقى بسند ضعيف عن جابر .

قيل لها : إنه لا يبد لكل مخلوق من خالق خلقه ، ومصوّر صورّه ؛ لأنه لا يخلق شيءٌ نَفْسَه البتّة . فإن سلمت هذا وأقرت به . قيل لها : أفأنت خالقه أم مخلوقه ؟ فإن قالت : خالقه عرضت عليها ذرة من خلق الله عز وجل ، وقيل لها : اخلقى مثل هذه الذرة ؛ فضلا عن أن تخلقين فيلا أو تخلقين جملا ، أو جبلا ، أو السماوات أو الأرض وما بينهما وما فوقهن وما تحتهن من المخلوقات معاً ، فإن عجزت عن خلق ذرة ثبت أنها مخلوقة ضعيفة عاجزة ، مثل تلك الذرة فى الضعف والعجز ، وقامت الحجة عليها وعلى جميع المخلوقات لضعفهم وعجزهم ، وثبت وصح أن الله تعالى هو خالقهم ومصورهم ومالكهم ومدبرهم وهو على كل شيء قدير .

وتمييز^(٣٨) هو عنها وعن جميع المخلوقات بالإلهية والوحدانية والعلم والقدرة والقهر ، وتنزه عنهم بالكلية فى ذاته وصفاته وأفعاله . فإن قالت بجهلها : هل هو واحد أو اثنان أو أكثر ؟ قيل لها : هو واحد لا شريك له فى ملكه ، فإن قالت : ما الدليل على ذلك ؟ .

قيل لها : لو كان اثنين ؛ لكان أحدهما مفتقراً إلى الآخر للمشاركة فى تدبيره الملك ، فهو أيضاً ضعيف عاجز ، والضعيف العاجز المفتقر إلى غيره ليس بإله البتّة ، وكذلك لو كان ثلاثة أو أكثر لكانوا أضعف كلما كثروا فقد صحت الوحدانية لله عز وجل ، وثبت أنه إله واحد لا شريك له فى ملكه ولا يخرج شيء عن قبضته ، ولا يتحرك متحرك بخير أو شر ، ولا يسكن ساكن إلا بحوله وقوته وقدرته ، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا فى وحدانيته ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَعَلَىٰ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون : ٩١-٩٢] .

(٣٨) فى النسخة (غ) : يميز .

فإن قالت أيضاً بجهلها : هل له بداية أو نهاية ؟ وهل هو شيء
كالأشياء ؟ وهل له مكان يحده ؟ وهل يُدرك بحسّ أو يقاس بقياس حسي ؟

قيل لها : إن الخالق منزّه عن المخلوق البتّة في ذاته وصفاته وأفعاله لا
يشبهه شيء البتّة ، فهو أول بلا بداية وآخر بلا نهاية ، وهو شيء معلوم
الوجود بالذات من حيث هو ، وبالصفات والأفعال من حيث المخلوقين ،
ولكن ليس كالأشياء المحسوسات بجوهر ظاهر أو باطن ، ولا يقاس بشيء
من ذلك العلم ؛ بل هو موجود بالعلم والقدرة في جميع الأشياء ؛ لأنه صانعها
والمصنوع دليل على الصانع، وخالقها على الحقيقة ؛ إذ لا بد لكل مخلوق من
خالق ، والخالق ليس كالمخلوق البتّة . فهو منزّه بذاته عن الحس وبصفاته
عن الجنس ، وبأفعاله على العكس قريب من الأشياء لا يدرك في قربه بقرب
المسافة ، ولا في إيصاله بالحلول واللمس وبعيد من الأشياء ولكن ليس كبعد
المسافة فلا يدرك في بعده بالانفصال والانتقال والعدم ، وكما تنزه عن كل
شيء بكمال صفاته ، كذلك تفرد عن كل شيء يعلم ذاته ، فلا يُعلم أين هو ،
ولا ماهو ، ولا كيف هو إلا هو .

فإنه لم يبق له حجة إلا مسألة الشيطان الكفرية ، وذلك أن النبي صلى
الله عليه وآله وسلم قال : ((لا يزال الشيطان بأحدكم يقول : من خلق كذا من
خلق كذا، وهو يقول : ربك ربك حتى يقول : من خلق ربك ، فإذا قال ذلك
فإنما هو الشيطان . فليقل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له)) (٣٩) .

وذلك أن الله عز وجل قد ثبت بالحجة الواضحة : أنه إله كل شيء

(٣٩) أخرجه أحمد في مسنده [٣٧٩/٢] من حديث أبي هريرة ، وأخرج البخاري في
صحيحه [٧٢٩٦] حديثاً بمعناه ، قال أنس : قال رسول الله ﷺ ((لن يبرح الناس
يتساءلون حتى يقولوا : هذا الله خالق كل شيء . فمن خلق الله)) .

البتة ، ومنزه عن كل شيء البتة، فليس بمخلوق البتة ؛ لأن كل مخلوق يعتره ويلحقه النقصان والزيادة والبداية والنهاية بحدوثه من خالقه ، فلا يشاكله شيء البتة .

والله تعالى هو خالق المخلوقات المحدثات ، وخالق النقصان والزيادات، وخالق البدايات والنهايات . فهو منتزه عن جميع ذلك بالكلية فلا بداية ولا نهاية فله القدم الكلي ودوام الوجود الكلي ولا بد من هذا ضرورة ؛ لأنه لو كان مخلوقا لدخل في حكم المخلوقات من جميع الجهات ، واحتمل البدايات والنهايات ، وانعدمت عنه صفات الخالق البتة وإذا انعدمت صفات الخالق لم يكن في الوجود خالقا البتة ، وإذا لم يكن في الوجود خالقا لم يكن مخلوقا البتة ، ووقع العدم الكلي وهذا باطل بوجود الله الكلي .

قد ثبت وصح بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة أن الله عز وجل ليس بمخلوق البتة ، بل هو خالق كل شيء البتة وموجد كل موجود البتة ، فهو علة العلة البتة .

تنزه عن إدراك ذاته : فقال تعالى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] . وتنزه عن إدراك صفاته : فقال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] . وتنزه عن إدراك فعله : فقال تعالى ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] .

وتنزه عن المشاركة والعجز : فقال تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] .

فإذا استقر هذا العلم عرف العارف به : أن الله تعالى أقام إرادته مقام ذاته فتجلى بماحسن صفاته في جميع موجوداته ، فهو معلوم الوجود ، خفى الذات ظاهر الفعل ، كامل الصفات ، لا تدركه الحواس ، ولا يشتمل عليه القياس ، أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ، وهو على كل شيء قدير .

فهذه حقيقة الشريعة وأصول علوم الدين البديعة ونهاية العلم المعقول
الذي قرّن العلم والمعرفة بإشارة الكيفية العقلية .

وأما الكمية^(٤٠) : فقد ثبت أن درجات العلم ثلاث :

علم الشريعة : الذي هو بداية العلم .

و علم الحقيقة : الذي هو المعرفة والنهاية .

و علم المشاهدة : الذي هو حقيقة الحقيقة ونهاية النهاية .

والأصل فيه : أن العبد السالك لما لم تصح عبادته إلا بمعرفة المعبود
وترقى من العلم إلى المعرفة بطريق التمييز بين الخالق والمخلوق ، عرف
نفسه بالعبودية والعجز والفناء ، وعرف ربه بالرؤية والقدرة والبقاء ،
فصار هو العارف حقاً ، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ((من
عرف نفسه فقد عرف ربه))^(٤١) .

وفى حديث آخر : ((أعرفكم بنفسه أعرّفكم بربه))^(٤٢) .

(٤٠) من الكم : وهو العرض الذي يقتضى الإنقسام لذاته ، وهو إما متصل أو منفصل
لأن أجزاءه إما أن تشترك فى حدود ؛ يكون كل منها نهاية جزء ، وبداية آخر ، وهو
المتصل ، أولاً ، وهو المنفصل ، كما أن الكمية : ما به ، يجاب عن السؤال بكم .
[التعريفات للجرجاني ص ٢٣٩] .

(٤١) ذكره صاحب كشف الخفا [٢٦٢/٢] وقال : قال النووي : ليس بثابت ، قال ابن
تيمية موضوع . وقال أبو المظفر بن السمعانى فى القواطع إنه لا يعرف مرفوعاً .
وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازى . وللحافظ السيوطى فيه تأليف لطيف سماه
القول الأشبه فى حديث (من عرف نفسه فقد عرف ربه) وهو ضمن كتاب الحاوى فى
الفتاوى .

(٤٢) ذكره العجلونى فى كشف الخفا [٢٦٢/٢] فى باب أدب الدنيا والدين من رواية
عائشة .

فلما عرف ذلك أقام نفسه مقام ذل العبودية بحق عظمة الربوبية فقط. مفتقرا إلى الله تعالى بالكلية ، واقفا بين يدي رحمته وخوف هيئته منزها لله عما سواه ، لا يفتقده حيث أمره ولا يجده حيث نهاه ؛ فانيا عن دعوى نفسه بحقيقة معرفته بربه في فح التنزيه بعد التمييز ؛ لعجزه وافتقاره وذل عبوديته، فلا سبيل له إلى إدراك حقيقته بعد هذا ؛ لأنه كلما حقق عجز نفسه كان أعجز ؛ وكلما قدر لكمال صفات الله تعالى حقيقة ؛ كان الله تعالى أعظم وأقدر وأجل وأكبر مما قدر.

وكذلك أيضاً كلما قدر لذات الله تعالى صورة في نفسه ؛ رجعت تلك النسبة -المصورة- إلى نسبة المخلوقين وصفاتهم ، فهي مخلوقة على الحقيقة، وعابدها عابد صنم ؛ لأن الله تعالى بخلاف ذلك ؛ إذ لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام والأفكار^(٤٣).

وكما ليس كمثل شيء ، ولا يشبهه شيء فكذلك لا يسعه شيء ولا يحيط به شيء ؛ لأنه بخلاف كل شيء ، واسع لكل شيء ، ومحيط بكل شيء، وهو على كل شيء قدير .

فالنفس هاهنا فانية عن الإدراك لا حركة لها إلى دعوى في معرفة

(٤٣) والدليل على أن الله واحد في ذاته ليس بذى أجزاء ولا أبعاد أنه قد صح أنه حي قادر عالم مريد ، فلو كان ذا أجزاء وأبعاد لم يخلو من أن يكون في كل جزء منه حياة ، وقدرة ، وعلم ، وإرادة ، أو تكون هذه الصفات في بعض أجزاءه ، فإن كان في كل جزء منه بعض هذه الصفات كان كل جزء منه حياً قادراً عالماً مريداً بانفراد؛ ولو كان كذلك لصح وقوع الخلاف بين أعضائه حتى يريد بعضه شيئاً ، وبعضه يريد ضد ذلك المراد وخلافه ، فتتنامع أعضائه . وإن كان تلك الصفات لبعض أعضائه وجب قيام أصداد تلك الصفات بالباقية من أعضائه ، فكان يكون بعضه حياً عالماً مريداً وبعضه ميتاً عاجزاً وجاهلاً ساهياً ؛ وهذا محال . [أصول الذين لابن ظاهر ص ٥٧] .

حقيقته البتة ، فهي محجوبة بحجاب العظمة مقهورة بيد القدرة راجعة إلى القهقري بالعجز عن الإدراك ، فمن جاوز ذلك حُرِق . ومن غاص في بحرهِ غرق . فما يُذركُ علم ذاته ولاكنة صفاته ، ولا الثناء عليه إلا هو .

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ((لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك))^(٤٤) .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : العجز عن إدراك الإدراك إدراك .

فالواصلون قاصرون عن إدراك حقيقته ، تائهون في بحار معرفته ، مزمومون بزمام توفيقه وإرادته ، مقهورون بحجاب عظمته وقدرته ، ألهمهم السلوك إلى تحقيق معرفته فسلكوا .

فلما حققوا فناء أنفسهم في بقاء وجوده هلكوا .

فحين تحيروا وانقصروا^(٤٥) خروا له سجدا في المعرفة بعد أن تطهروا من دنس الشك ، وألزموا أنفسهم عبادته الخالصة ، فصلوا إلى قبلة وجهه ، وصاموا عما سواه ؛ فهم الأحرار الأبرار الذين صحت عبادتهم بعد معرفة المعبود ، فنالوا كل المنى والمقصود .

ومنهم أولياء الله المقربون المجذبون بعنان التوفيق ؛ فهم أهل المشاهدة والتوفيق والتحقيق . لما وصلوا إلى درجة المعرفة بالله عز وجل قالوا ﴿رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠] . وتحيروا فهاموا فأدار عليهم كؤوس فضله^(٤٦) ، وأفناهم عنهم به ، واختصهم لقربه وجعلهم من حزبه ، فأقدمهم على بساط أنسه، وأشهدهم حضرة قدسه فصحت مشاهدتهم بعد فناء أنفسهم .

(٤٤) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٢٢) وأبو داود في الصلاة (١٤٨) ، والترمذي

الدعوات (٣٤٩٣) عن عائشة رضي الله عنها .

(٤٥) انقصروا عن الشيء : أى تركوه وهم لا يقدرين عليه .

(٤٦) في النسخة (ك) : حبه .

فلسان ترجمان صفة الرحمن ، يثني على نفسه بلسان أحدهم حين استيلائه عليه وإفناؤه إياه يقول : أنا الله سبحانه ما أعظم شأنى . وذلك بعد ترقى أحدهم فى درجات العبادة الخالصة بنوافل فناء النفس التى هى أفضل القرية إلى الله عز وجل .

فلما فنيت فى وجوده اتصف هو بها ، فقال تعالى : ((لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به))^(٤٧) . فحينئذٍ صحت مشاهدته التى هى حقيقة الحقيقة والله أعلم شعر :

يا من تعرّف لى به فعرفته	وبه المحبة حين أن أحببته
أنت الذى فى كلّ كلى حاضره	أشهدتى وجدى فمنك شهادته
فالوجد منى والوجود جميعه	أفنيته فعلى الحقيقة أنت هو

فهذه طريقة العبد السالك ووظائفه فى درجات العلم الثلاث -كما وصفنا- وهذا هو الكبريت الأحمر^(٤٨) ، والترياق^(٤٩) الأكبر المركب من معجون؛ العلم والمعرفة والمشاهدة^(٥٠) النافع لأدواء^(٥١) القلوب من معصية علام الغيوب فى علم الشريعة والحقيقة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(٤٧) جزء من حديث قدسى أخرجه البخارى بنحوه كتاب الرقاق ، باب التواضع (٦٥٠٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه ، وأحمد فى المسند (٢٥٦/٦) .

(٤٨) وردت عبارة (الكبريت الأحمر) فى حديث عن معاذ بن جبل عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ((ما خلق الله فى الأرض شيئاً أقل من العقل، وإن العقل فى الأرض أقل من الكبريت الأحمر)) . ذكره صاحب كنز العمال (٧٠٣٩) وعزاه للرويانى وابن عساكر، وهو ضعيف حيث إنه لا يصح حديث فى العقل كما سيأتى .

(٤٩) أى الدواء الأعظم لدرن الشرك ، وما خفى منه .

(٥٠) انظر الهامش رقم ١٩ من هذا الكتاب .

(٥١) إدواء : مفرد ما داء : مرض .